

بعد انصرام القرنين الثاني والثالث من الهجرة النبوية المباركة وورود الإشارات إلى إعجاز القرآن في المصنفات التي عُيِّتْ بعلم القرآن حاول العلماء أن يستثمروا هذه الإشارات ليؤسسوا منهجاً جديداً في دراسة القرآن الكريم، حيث عملوا على إنضاج ما وصل إليهم من إشارات بالتصنيف والتأليف في شقي مسألة إعجاز القرآن والمتمثلة بالصرفة والنظم مع بزوغ فجر القرن الرابع الهجري. ولعل أول من تصدّر في شرح الأعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف إنما هو أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت ٣٠٦هـ)^(١) في كتابه (إعجاز القرآن) وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) شرحاً كبيراً سماه (المعتضد) وآخر أصغر منه^(٢)، ولا يبعد أن يكون الواسطي قد استفاد من كتاب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) (نظم القرآن) وبنى عليه حين صنف كتابه (إعجاز القرآن) الذي لم يصل إلينا^(٣).

وفي ضوء ما تقدم يمكن دراسة إعجاز القرآن بشقيه (الصرفة والنظم) وبيان التأليف فيهما مبيناً ما ورد في كل منهما من مصنفات وما توصل إليه العلماء من آراء.

الإعجاز بالصرفة:

الصرفة في اللغة من الصرّف (والصرّف أن تصرّف إنساناً عن وجهٍ يريده إلى مَصْرَفٍ غير ذلك)^(٤)، وقال الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ): (الصرّف ردّ الشيء إلى حاله أو أبداله بغيره، يُقال: صرّفته فأنصرف)^(٥). وقال ابن منظور (٧١١هـ): (الصرّف ردّ الشيء عن وجهه، صرّفه يصرّفه صرفاً فأنصرف ... وصرّف الشيء أعمله في غير وجه كأنه يصرّفه إلى وجه. قال ابن الأعرابي: الصرّف: الميل)^(٦).

والصرفة في الاصطلاح هي صرف الهمم عن المعارضة^(٧) وأن كان مقدوراً عليها غير معجوز عنها^(٨). وعد الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) الصرفة في سلب الله دواعيهم إلى المعارضة مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة^(٩).

هذه الوجهة التي ذهب إليها أهل الصرفة تفسرها أن القرآن مؤلّف من كلمات تنتظم مع بعضها في هذا النسيج، وأن من البلغاء من لهم من القدرة في أن يعملوا مثل هذا النظم والتأليف، لكن أمراً خارجاً عنهم قد سلبهم هذه المقدرة في التأليف مثله، وهم بذلك يذهبون إلى أن نظم القرآن ليس معجزاً بذاته لأنه كلام منظوم، والعرب هم أهل البيان فلا يُعجزهم القرآن بذاته، وإنما الذي أعجزهم الله تعالى. ذهب إلى هذا الرأي أبو إسحاق النّظام (ت ٢٢١هـ) من المعتزلة وأختره الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) وقال: (لو كان الأمر بخلاف ذلك لوجب أن تقع منهم - أي المعارضة بالتأليف والنظم - على كل حال لأن العرب الذين حُوطبوا بالتحدي والتقريع ووجّهوا بالتعنيف كانوا متى أضافوا فصاحة القرآن إلى فصاحتهم وقاسموا كلامهم بكلامه علموا أن المزية بينهما تظهر لهم دون غيرهم ممن نقص عن طبقتهم ونزل عن درجتهم ودون الناس جميعاً ممن لا يعرف الفصاحة ولا يأنس بالعربية)^(١٠).

(١) لم أجد له ترجمة بحدود تتبعي.

(٢) ظ: الرفاعي / إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٥٢.

(٣) ظ: د. صبحي الصالح / مباحث في علوم القرآن: ٣١٤.

(٤) الفراهيدي / كتاب العين: ٢ / ٩٨٥ - مادة صرّف.

(٥) الأصفهاني / مفردات ألفاظ القرآن: ٤٨٢ - مادة صرف.

(٦) ابن منظور / لسان العرب: ٧ / ٢٢٨ - مادة صرف.

(٧) ظ: الرماني / النكت في إعجاز القرآن: ١٠١.

(٨) ظ: الخطابي / بيان إعجاز القرآن: ٢٠.

(٩) ظ: المرتضى / الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة): ٣٤، ٢٥٠.

(١٠) م. ن: ٩٣.

ومن الذين ذهبوا إلى أن الصرفة وجهٌ من وجوه الأعجاز علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ) فقال: (وهذا - أي وجه الصرفة - عندنا أحد وجوه الأعجاز الذي يظهر منها للعقول)^(١١).

أما حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨هـ) فقد ذهب إلى قول بعض الناس في أن علة أن الإعجاز تكمن في الصرفة وتعد صحة المعجزة بأن تكون أمراً خارجاً عن مجاري العادات ناقضاً لها، وهذا وجه قريبٌ عنده^(١٢).

لكنه أستدرك ليدفع عن نفسه القول بدلالة أن الآية تشهد بخلافه - حسب ما زعم^(١٣) - وهي قوله تعالى [لَئِن أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]^(١٤).

لقد ألف الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) كتاباً سماه (الموضح عن جهة إعجاز القرآن) وأطلق عليه مختصراً (الصرفة)، جمع فيه شتات آرائه وأبرز أدلته الموثقة في كتبه، متأثراً في ذلك بأستاذه الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) الذي سبقه فقال: (إن جهة ذلك هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمتله في النظام عند تحديه لهم، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمتله وإن كان في مقدورهم دليلاً على نبوته (صلى الله عليه وآله وسلم)، واللطف من الله تعالى مستمر في الصرف عنه إلى آخر الزمان وهذا من أوضح برهان في الأعجاز، وأعجب بيان)^(١٥).

لقد عرّف الشريف المرتضى في كتابه معنى الصرفة بقوله: (بأن يسلب الله تعالى كل من رام المعارضة وفكر في تكلفها في الحال التي يتأتى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم)^(١٦) غير أن التحدي لا يكون إلا في الفصاحة مع طريقة النظم، وأن القرآن مختص بطريقة مفارقة لسائر نظوم الكلام^(١٧)، ثم أنه يعزز رأيه في أن التحدي كان بالفصاحة والنظم معاً، بقوله: (إنا رأينا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أرسل التحدي إرسالاً، وأطلقه إطلاقاً من غير تخصيص يحصره أو استثناء يقصره، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) مخبراً عن ربه [لَئِن أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]^(١٨)^(١٩).

إن القول بالصرفة يؤدي إلى القول بأن نظم القرآن ليس معجز بنفسه ونتيجة ذلك يمكن لكل قادر على صوغ الكلام الفصيح إن يحتذي نظم سور القرآن^(٢٠).

وذهب قوم إلى إنكار وجهة الصرفة منهم أبو بكر الباقلائي^(٢١) (٤٠٣هـ) فقال: (ومما يبطل ما ذكره من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع هو

(١١) الرماني / النكت في إعجاز القرآن: ١٠١.

(١٢) ظ: الخطابي / بيان إعجاز القرآن: ٢٠ - ٢١.

(١٣) ظ: م. ن: ٢١.

(١٤) سورة الإسراء / الآية ٨٨.

(١٥) الشيخ المفيد / أوائل المقالات: ٦٨ - ٦٩.

(١٦) المرتضى / الموضح عن جهة إعجاز القرآن: ٣٥ - ٣٦.

(١٧) م. ن: ٣٦.

(١٨) سورة الإسراء / الآية ٨٨.

(١٩) المرتضى / الموضح عن جهة إعجاز القرآن: ٣٩.

(٢٠) م. ن: ٤٦.

(٢١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر. قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة ولد بالبصرة وسكن بغداد فتوفي فيها سنة ٤٠٣هـ، من كتبه: إعجاز القرآن، مناقب الأئمة. ظ: الزركلي / الأعلام: ٦ /

المعجز فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه^(٢٢).

وكذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي^(٢٣) (ت ٤١٥ هـ) إذا عدّ القول بالصرفة لا يجعل للقرآن مزية، قال: (ومن سلك هذا المسلك - أي الصرفة - في القرآن يلزمه أن لا يجعل له مزية البتة، على أن ذلك يبطل بعض القرآن، لأنه تعالى قال: [لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] ولو كان الوجه الذي له تعذر عليهم المنع لا يصح ذلك)^(٢٤).

وعقد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) فصلاً (في الذي يلزم القائلين بالصرفة) في رسالته، وأكد أنه يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها وذلك أنه يلزم عليه أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان^(٢٥). وذهب هذا المذهب يحيى بن حمزة العلوي^(٢٦) (ت ٧٤٥ هـ) فقال: (لو كان الأمر كما زعموا من أنهم صُرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة وأن يميزوا بين أوقات المنع ... لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن)^(٢٧).

أما من المعاصرين فقد أنكروا قوم، وذهبوا مذاهب شتى، فحكوا أن القول بالصرفة شبيهة بقول العرب كما حكاه تعالى عنهم: [إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى] ^(٢٨)، وهذا ضرب من العبث ينبغي أن يُنزه عنه المنكرون أنفسهم^(٢٩). وأكد أبو القاسم الخوئي بأن القول بالصرفة (واضح البطلان لأن كثيراً من الناس تصدوا لمعارضة القرآن فلم يستطيعوا ذلك واعترفوا بالعجز)^(٣٠)، وأشكّل كمال الحيدري على مذهب الصرفة بعدة إشكالات منها: (أنه يلزم بناءً على الصرفة أن يكون القرآن كلاماً عادياً صادراً من إنسان) والأشكال الآخر (سيفضي إلى أن تكون النبوة والوحي الإلهي للإنسانية لغواً لا محصل له، ومعه لا حاجة إلى إقامة المعجزة حتى لو كان ذلك عن طريق الصرفة)^(٣١).

(٢٢) الباقلائي / إعجاز القرآن: ٣٠.

(٢٣) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسدي، أبو الحسين، قاض أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره، وهم يلقبونه قاضي القضاة، من تصانيفه: تنزيه القرآن عن المطاعن، الأمالي، وغيرها. ظ: الزركلي / الأعلام: ٢٧٣ / ٣ - ٢٧٤.

(٢٤) القاضي عبد الجبار / المغني (إعجاز القرآن): ١٦ / ٣٢٣.

(٢٥) ظ: الجرجاني / الرسالة الشافية: ١٣٣.

(٢٦) هو يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلوي الطالباني من أكابر علماء الزيدية، ولد في صنعاء. له من التصانيف نهاية الوصول في علم الأصول، المحصل في كشف المفصل (خ)، الطراز، وغيرها. ظ: الزركلي / الأعلام: ١٤٣ / ٨.

(٢٧) العلوي / الطراز: ٥٨٢.

(٢٨) سورة المدثر / الآية ٤.

(٢٩) ظ: فتحي أحمد عامر / فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: ٣١.

(٣٠) الخوئي / البيان في تفسير القرآن: ٩٧.

(٣١) الحيدري / الإعجاز: ١٨٩ - ١٩٠.

